الأستاذة دعاء رضا حياوي (العراق)

الأخلاق بين الواقع والمُثُل (مبدأ العيب قبل الحرام)

جاء الاسلام ليكمّل مكارم الاخلاق، فأبقى على القيم التي كانت عليها الشعوب في كل المجتمعات من أخلاق حسنة ، فأثنى على حُسن الخُلق، وحثّ على التحلي بها، لما لها من أهمية كبيرة، وتأثير على الفرد و المجتمع.

مكارم الاخلاق من أهم مقوّمات الانسان الذي يتكوّن من شكل ومضمون ، والاخلاق هي المضمون. وقد ربطها الله تعالى بالدين والعمل الصالح، وهذه الاخلاق تظهر جلياً على سلوك الفرد، فتغرس في نفسه صفات الرحمة والصدق والعدل والإحسان والأمانة والتكافل الاجتماعي...

هذا الحصن الحصين الذي دعوناه الاخلاق، والذي نعتبره ضرورة اجتماعية، بدأ بالإنهيار وادى انهياره الى التفكك و غياب الأمن والاستقرار والتصارع على حساب المصالح الفردية ... ففُقدت القيم الاجتماعية وأصبح الانسان سجين غرائزه يبحث عن اللذة والمتعة بدون توقف وبدأ السقوط نحو الهاوية بدون ردع ، فبرز خطاب العنف والدم والرأي المخالف... وارتفع مستوى الانانية ، وفُقد التعاون و التكافل الاجتماعي، وانتشرت الجريمة، وطُمست العقلانية في السلوك الحياتي... أصبح قانون الغاب هو السائد.

هذة المعطيات تدفعنا الى التركيز في هذا المقال على الاخلاق بين الواقع و المُثل.

1- تعريف الاخلاق

أ- **التعريف اللغوي:** الأخلاق في اللغة جمعٌ، ومفردها الخُلق، وتُطلق على مجموعة الصفات النفسيّة للإنسان وأعماله التي توصف بأنّها حسنةٌ أو قبيحةٌ.

ب- **التعريف الإصطلاحي:** الأخلاق في الإصطلاح هي ميلٌ من الميول، أو عادة الإرداة التي تغلب على الإنسان دائماً حتى تصبح عادةً من عاداته. ويُعبّر عن الأخلاق بأنّها: "القوة الراسخة في الإرادة التي تجعل المرء يختار ما فيه خيرٌ وصلاحٌ إن كان الخُلق كريماً حميداً، وتجعله يختار الشرّ والفساد إن كان الخُلق سيّئاً وقبيحاً.

والفضيلة تطلق على الدرجة الرفيعة من الفضل والخُلق، وتنقسم إلى قسمين:

- إنسانيّةً وهي التي تقوم على المشاعر الإنسانيّة، كالرقّة في الطبع، وشرفٍ في النفس، والرغبة في البرّ والنفور من الشرّ.
- ربانيّة هي الفضيلة القائمة على المشاعر الروحيّة، التي يُقصد منها نيل رضا الله تعالى.

والفضيلة في الإسلام تجتمع فيها الفضيلة الإنسانيّة والربانيّة، حيث إنّ المسلم يحبّ الخير والمعروف للناس، ويكره لهم الشرّ، ولا يؤذي أيّ أحدٍ منهم، وكلّ ذلك طلباً وسعياً لنيل رضا الله تعالى، وتُطلق الأخلاق الإسلاميّة على اعتياد الإنسان على الاستجابة للفضائل الإسلاميّة، وذلك خلال تعامله مع مختلف المخلوقات؛ اتباعاً للمنهج الرباني، وسعياً للحصول على رضا الله سبحانه.

هذا وقد عُرّفت الاخلاق لدى علماء الاجتماع والانتربولوجيا بأنها قيم ، أو منظومة قيم تعرّف عليه الانسان باعتبارها تجلب الخير وتطرد الشر.

وقد قيل عنها أيضاً أنها شكل من أشكال الوعي الانساني ، كما تعتبر مجموعة من القيم تحرك الاشخاص والشعوب، كالعدل و الحرية والمساواة بحيث ترتقي الى أن تصبح مرجعية ثقافية للشعوب وسنداً قانونياً للدول.

اما علم الأخلاق فهو علم يعتني بدراسة السلوك الانساني على ضوء القواعد الأخلاقية التي تضع معاييراً للسلوك، إذ يضعها الإنسان لنفسه أو يعتبرها التزامات وواجبات تتم في داخلها أعماله.

علم «الأخلاق يتعلق بوجه عام، بمعايير السلوك التي يتحدد بموجبها الإعجاب بموقف معين أو رفضه، احترامه أو إدانته. و تسري هذه المعايير على المجتمع بأسره، لتشكل ميثاقاً شرفياً، أو تنطبق على بعض الممارسات المهنية لمجموعة بعينها من هذا المجتمع.

2- **مصادر السمات التي تطلق على الاخلاق:**

جميع الكتب والشرائع السماوية تعد مصدراً للاخلاق والقيم الانسانية

3- أهمية الأخلاق في المجتمعات: تتمثل أهمية الأخلاق في المجتمع بما يلي :

- إنشاء حضارة إنسانية فاعلة، من خلال بناء أفراد، ومجتمعات، ودول واعية.
- زيادة قوة المجتمع ومناعته، من خلال غرس مبادئ الحب، والإيثار، والأُخوة بين أفراده.
- تمتُع أفراد المجتمع بحياة رغيدة وتحقيق سعادتهم.
- ضبط سلوك الأفراد وممارساتهم بما يتماشى مع المعايير الأساسية القائمة على حسن الخلق.

- المساهمة في نهضة الشعوب لما تُحققه من تماسك وتجانس بين أفراد المجتمع الواحد، وسيادة الأمن والعدل بين أفراده ومؤسساته.
- التشجيع على التعاون والعمل الجماعي، إذ تخلق الثقة بين الأشخاص، وتحارب السلوكيات الفاسدة، فلا يخشى الفرد التعرض للغدر أو الخيانة.
- تحقيق الرقي في المجتمع باعتبارها المحرك الأساسي لسلوكيات الأفراد، والعامل الأساسي الذي يعزز الروابط الاجتماعية.
- خلق الانضباط والتوازن في حياة الأفراد، وتنقية نفوسهم من مشاعر الأنانية الفردية؛ ممّا يؤدي إلى تحقيق الأهداف الجماعية.
- الحفاظ على حياة الأفراد واستقرارهم؛ وذلك بتمكينهم من اتخاذ القرارات الصائبة، وتزيد قدرتهم على التكيف والاستجابة مع كل ما هو جديد.

4- **الأخلاق والمسؤولية المجتمعية** : تشير المسؤولية الاجتماعية إلى أداء كل فرد لواجباته المدنية تجاه مجتمعه بما يُحقق أهداف المجتمع ككل، ويُساهم في النمو الاقتصادي، والبيئي، والمستوى المعيشي على حد سواء، ويعتمد تحقيق المسؤولية الاجتماعية على المنظومة الأخلاقية، بحيث يجب تقييم القرارات أخلاقياً للتمييز بين الخطأ والصواب قبل وضعها حيز التنفيذ، واستثناء أية إجراءات غير مسؤولة يُمكن أن تلحق الضرر في المجتمع أو البيئة، وينبغي على الأفراد والجماعات تطبيق المسؤولية الاجتماعية ضمن المعاملات، والإجراءات، والقرارات اليومية خاصة تلك التي تُؤثر بشكل مباشر في الأشخاص أو الجماعات الأُخرى.

هذه المعطيات تشير الى التعاطي الصحيح مع الاخلاق في المجتمعات وخاصة العربية منها والاسلامية، متمثلة بالمثل أما الواقع الحقيقي للاخلاقيات في مجتمعاتنا فيمكن ان

نصوره من خلال قصص لاتحصى، تحصل يومياً ولا تنتهي ، وتعطي صورة قاتمة نأسف لها.

5- **قصة واقعية:** كنت جالسة فى مجلس من مجالس العزاء، بين مجموعة كبيرة من الناس، من مختلف الاعمار. و كنت أتأمل مايدور حولي من أحاديث، فجذب انتباهي شخص كبير في السن يتحدث ويغتاب اشخاصاً غير حاضرين، ويحقد عليهم، وينعتهم بابشع الصفات . وعندما انتهى من حديثه، طلب من الحاضرين أن يحافظوا على سرّية الكلام الذي دار بينهم، كي لايصل للشخص المغتاب، خوفا من اهتزاز صورته أمام الشخص المعني(المغتاب)، تأملت هذا الموقف الذي يندرج في أيامنا ضمن مبدأ العيب من الخَلِق، والخوف منهم ومطالبته بالمحافظه على سرية الحديث وبهذا التصرف يكون قد ابتعد عن القوانين والمبادى الانسانية ومخافة الخالق....

أليست الاخلاق عمود المجتمع واساس تكوينه ...؟ لماذا نبتعد عن المنظومة الاخلاقية التي تحمل العفة والحياء وعدم التعدي على حقوق الاخرين ...؟ هل نحن في غابة كثرت فيها الوحوش البشرية ...؟ فاليوم الاخ يقتل اخته بطريقة بشعة، تحت ذريعة انها استخدمت هاتفه لإنشاء حساب لها على موقع تواصل اجتماعي، الأمر الذي أثار غضبه. وتحت مسمى العيب من الأهل والأصدقاء اذ لايستطيع أن يتخيل موقفهم منه,، واخته تمتلك حساب على مواقع التواصل... لقد كان خوفه من كلام الناس، وكلام الاهل ولم يخف من حكم الله وغضبه عليه وهو يرتكب أبشع المحرمات وقتل النفس لإرضاء الآخرين...

... وللاسف الشديد اصبحت اليوم اخلاق المجتمع للتباهي في الظاهر ، لكسب ود الاخرين .فكثير من الآباء يربون ابناءهم على مبدأ العيب من الناس، وكيف بحافظون على "البرستيج" أمامهم، بغض النظر عن ارتكابه للمحرمات في الخفاء. وهم يبغون في ذلك إرضاء الخلق.

وهناك الكثير من القصص المأساوية في الغيبة، والقتل، وعقوق الوالدين... نعيشها كل يوم و تتكرر. أليست الاخلاق أساس الدين ولا يمكن للأنسان الفصل بين الاخلاق والدين باي شكل من الأشكال ؟ لذلك قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ". فبهذه الكلمات حدد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الغاية من بعثته، أنه يريد أن يتمم مكارم الأخلاق في نفوس أمته والناس أجمعين ، فالدين الاسلامي قائم على الاخلاق والمبادئ الحميدة ، ومن المعيب جداً أن ننظر الى المجتمعات الغربية وهم يطبقون كل مادعانا اليه الاسلام، ويلتزمون بما جاء به في حياتهم، أما نحن فقد وصلنا لمستوى متدني جداً من عدم التزام الاخلاق الصحيحة، وقلة الدين، وأصبحت التربية وفق مبدأ العيب والخوف من كلام الناس، وليس على مبدا حرام وحلال , فالتربية شيء اساسي غاب عنه الكثير. والأجيال تربت على قيم فاسدة. تستبيح كل المحرمات وتتعامل معها ببساطة على إنها امر سهل وعادي ...ولابد ان نعترف ونكون اكثر جرأة ونقرّ بأن مجتمعاتنا العربية بشكل عام تنتشر فيها ثقافة العيب اكثر من ثقافة الحرام. وكلنا نفهم ان "العيب"هو الذي أوجده الناس، واجتمع المجتمع عليه ،أما الحرام هو الذي شرّعه الله عز وجل، وانزل تحريمه من فوق سبع سماوات. وللأسف نغفل عن حقيقة ان "ليس كل عيبٍ حرام، ولكن كل حرامٍ عيب "

وعلى الرغم من ان العيب حكمه متغير تبعاً للمجتمع، فالمجتمع المصري يختلف عن المجتمع اللبناني، من حيث العادات والتقاليد والموروث الاجتماعي، ومايراه الناس عيباً في العراق، ربما لايرونه عيباً في قطر وهكذا يختلف الامر من مجتمع لآخر... وكذلك يختلف زمنياً ومع مرور

الوقت مانراه عيباً اليوم، قد لا نراه كذلك بعد عدة سنوات ، أما الحرام فهو موجود في كل مكان وزمان ولايختلف ولايتغير من مجتمع لآخر.

إن أخلاق الإسلام واضحة وعلينا أن نكون مُخلصين فيها لله وحده وما تشهده مُجتمعاتنا من أزمة القيم والمبادئ هو بسبب تخلُّفنا نحن وابتعادنا عن ديننا. وبداية الإصلاح تكون بتصحيح المفاهيم، وبمُجاهدة النّفس في الإبتعاد عن الشهوات والغرائز الحيوانية وان نلتزم بنهج الإسلام. فلا يمكن النظر الى الاخلاق بمعزل عن الدين، لأنها قيمة راسخة في النفس، تنمُّ عنها الأفعال، وقد تكون هذه الأفعال محمودةً، فيكون الخُلُق حَسَناً، أو قد تكون مذمومةً فيكون الخُلُق سيّئاً. وهذه الأخلاق مهمة واساسية في بناء المجتمعات وتطورها، وهي اساس الشريعة الاسلامية التي تحافظ على المجتمع من إتباع غرائزه وشهواته، فهي تحافظ على المجتمع من الإنهيار والإنحلال وتبني اساساً قوياً ومتماسكاً للإنسان ، فهي لها دور كبير في تنمية المجتمع وتطوره، وما فائدة مجتمع بلا أخلاق خالٍ من القيم والمبادىء الانسانية التى تتكلم عن محاسبة النفس، والصبر والعفة، الشجاعة والعدل، البشاشة والتسامح والحرص على مقابلة الإساءة بشكل أفضل، ومعرفة حدود الآخرين، وعدم التعدي عليها. فكل هذه القيم لابد من الالتزام بها وتطبيقها، لتكوين مجتمع سوي متطور متسامح يتحلى بالاخلاق، وهي الواقي الأساسي له وتحميه من الإنحلال والإنهيار .

في وطننا العربي، وفي العصر الراهن نعيش في مستوى رديء تتفشى فيه القيم السيئة ، بعد أن هُدمت القيم الحميدة، على أثر غياب الأخلاق، وانتشار الشعور بالقلق والإحباط، وانعدام الثقة، وتولد الشك بين الأفراد، وكذلك انتشار الفوضى وعدم الإلتزام بالقوانين، وأيضاً انعدام الشعور بالانسانية و تصدر قانون المصلحة الشخصية...

لقد أصبحت الأخلاق السيئة ثقافة مكتسبة الى حد التباهي والإعتزاز. والأمثلة على ذلك لاتحصى ولا تعد ونذكر بعضاً منها:

- نذهب الى المسجد لأداء الصلاة وعندما نستعد للخروج، فإذا بأشخاص يفقدون أحذيتهم.
- نذهب الى السوق لشراء بعض الحاجيات فنراقب الغش في الوزن والنوعية والأسعار...
- نتمشى في أحد الشوارع فنرى مجموعة من الناس يتجادلون، ومن ثم يشتبكون وقد يصل ذلك الى القتل.
- نذهب الى مرفق حكومي أو خدماتي لإنجاز معاملة ما، لانتمكن من إنجازها الا بعد دفع رشوة.
- نركب في باص، أو نمر في أماكن مكتظة، نتعرض للسرقة.
- نعود الى المنزل، وعندما نجلس أمام التلفاز نستمع لنشرة الأخبار نرى مشاهد القتل والدمار والصراعات والتهجير والتفجيرات والفوضى في أكثر من مجتمع عربي...

إننا أمام أزمة أخلاقية كبيرة بعد أن فقد بعض الناس مبادئهم وأخلاقياتهم واستبدلوا الأخلاق بالماديات ، وباعوا الضمائر وحشدوا للرغبات و الشهوات... فانتشر الفساد في كل مكان وتحول المجتمع الى غابة من الوحوش تنهش بعضها البعض دون رحمة أو قانون يردعنا...

متى سنعيد النظر في سلوكنا ونصحح مسار حياتنا؟

يا ترى أين الخلل؟

- هل في الافراد؟
- هل في المجتمع؟
- هل في منظومة الحكم؟

- هل في الرقابة (المدنية، السياسية، الدينية)؟
- هل في...؟

الى متى ستستمر مجتمعاتنا في السقوط والإنحطاط الأخلاقي الذي ينعكس سلباً على كل جوانب الحياة، ويحول دون مواكبتنا لركب الحضارة...متى ستعود الأخلاق الى مجتمعاتنا؟

سأترك الإجابة على ذلك لكل من يقرأ هذا المقال...